جنون الليل

ريم السيد

الموتُ شيء بسـيط رغم فداحته والالآم الناتجة عنه، ولكنه يُحول الأشياء العادية لأشياءٍ ذات قيمة ومكانة في النفس.

أتذكر الموتَ جيدًا، ـإنه يمتلك رائحة نفاذة ويزحف كـالصَّبا، حتى الحركة تنتج عنه، كل شيء يتغير بـمجرد حضوره، فـبرغم شدّته إلا أنه يطغي على الجميع، الموت آتٍ لا محاله!

أناسٌ يدخلون ويخرجون، والعالم أصـبح مُعتم في وجوه الجميع، فـالفقيد قريب من قلب الجميع، والطيبة من سماته الحسنة، الكل حزين لـفراقه ومُشـفقين على أقاربه الجامدون في أماكنهم من أثر الصـدمة والعذر معهم، فـالصـدمة ألجمت الجميع وأولهم هؤلاء الذين يصـطفون واحدًا تلو الآخر بـتتابع، يتقبلون كلمات الآخرين بإيماءة بسـيطة من رأسـهم، والصـمت يُخيم عليهم منذ ليلة الأمس وبالتحديد منذ علّمهم عن الحدث.

_لقد مات بسكتة قلبية.

والجملة الصادرة من الجالس بجواري قطعت تسلسل أفكاري، هذا هو سـبب الوفاة! فجأة وبدون سـابق إنذار آتاه الموت على صـورة سكته قلبيه عنيفة أودّت بـحياته فورًا، والخبر انتشر كـالنار على العلم في ذات الليلة، ولم تتـوقف الناس عن التحرك منذ ذلك الحين.

_كيف علمت يا سعد؟!

والسؤال آتى من الشخص ذاته بفضول يرتسم على ملامحه، لأجِيبُه بشيء من البرود:

_ وهل يُخفي شيء في هذه القرية!

كانت إجابة أكثر منها سؤالٍ، ولكن الرجل لم يكتفِ بهذا القدر فقط فتابع بفضول يأكله والحزن بنبرات صوته واضحة:

_ولكن كيف مات هكذا بسهولة، فلقد كان معنا قبل الأمس، إنني حتى الآن لا أصدق هذا..!

_قلتُ ببساطة أجيدها في مثل تلك المواقف:

_ الموت لا يستأذن قبل أن يطرق على الباب، ولكنه يخطف ما يشاءُ وقتما يشاءُ.

أومأ الرجل موافقًا إياي شاردًا بهمومه الخاصة مُردفًا ببعض التعب:

_ وحتى ذلك اليوم فليعمل المرء لآخرته.

أومأتُ مؤيدًا إياه، فكيف يأمن المرء للموت فهو يأتي بأوقات لا تتوقعها آخذًا إياك ليوم لا ريب فيه..

_ قُتِل.. قُتِل!

ولم يكن الجالس بجواره هو المُتحدث؛ فهذه المرة كان " توكل " صاحب العقل الخفيف كما يُطلق عليه، توكل ذاك الرجل الذي أصابه الجنون منذ مُدّه لا بأس بها حتى يُوعى الصغار على حقيقة جنونه، موت ابنه في ظروفٍ غامضه أودّت بآخر ذرات عقله، لذلك فهو الوحيد الذي يُثير تساؤلاتُ عديده بداخلي، أفعالٌ كثيرة يقوم بها ولا تمُت للجنون بصله، هل هذا هو أصل الجنون؟!

آخر ما قام بـــفعله هو استمراره في قوله " قُتِل " كـــأنها أصبحت قضيته الآتية في هذا العالم ويجب أن يُصدقه الآخرون!

وكأن الناس ستصدقه!

ويبدو أن " توكل " له حواس أخرى بعيده عنا، كـــــأن الله أخذ من عقله لــيزيده في شيء آخر، إن قسمة الله عادله بدون شك، ولــكن ماذا يقصد " توكل " بكلمته _ الوحيدة _ تلك؟!

حين أرى " توكل " أتذكر جيدًا قول آينشــتاين حين أبدع في قوله: " الفرق بين العبقريّة والجنون بســيط جدًا، وهو أن العبقري يعرف جيدًا الحدّ الّذي يقف عنده قبل وقوعه في الجنون، الجنون إذًا عبقرية متطرفة! العباقرة أشخاص مارسوا الجنون فعلًا، ولـــكنهم ملكوا حكمة التوقف قبل الوقوع بالجنون ".

لــذلك يجب تقدير الجنون والواقع به، الحكمة ليست في المجنون أو العاقل، بل الحكمة في الإبداع والتفَنن في الأشــياء العادية البســيطة، الحياة عادية ومبدعة في نفس الوقت، ولكن تختلف بــالنسبة للــشخص الماثل أمامها، وأكثر ما يُميز الجنون بــأنه يُفنن الحياة فــيجعل لــها مذاقا أكثر مُتعة، والمجنون إنه أعظم شخص يرمي الحياة وراء ظهره غير عابئ بها. إذًا الجنون فنون كما يقولون!

قمت من مجلسيــ تاركًا خلفي ذلك الفضــولي، اتجهتُ ناحية المُصطفين مُعزيًا إياهم بكلماتٍ موجزة:

_ البقاء والدوام لله وحده.

ليردّ إحداهم مُجيبًا بحزن مختلط بهمٍ ثقيل:

_ ونعمَ بالله.

صافحتُ آخرهم مُودعًا المكان، مُلقيا آخر نظراتي عليه وعلى أفعاله التي توحي بـجنونه المؤكد الذي لم يُوقفه لـفعل الواجب _ يُعزي أحد جيرانه _ تركتُ نظري للـبعيد مُخلفًا وراء كل شخص بـعقله، وجنونه وأفكاره، ومبادئ، وهمومه، تركت العالم يشـهد إحدى نظامه المُسلّم بها... الوجود يعني الفناء.

****

أيامُ تجري بـسرعة قصوى والعالم هو العالم ليس به جديد، الرؤية من النافذة لم تكن جديدة "العم مُحسـن " صـاحب محل الحلوى والأطفال حوله مُنتظرين نصـيبهم هذا اليوم من هدايا الحلوى، والأم تمسك يدّ الفتاه تُواعيها لـعبور الطريق ومواصلة أمور حياتها مُشبه الحياة بـطريقٍ يجب أن تسلكه، وغيره من الأشياء التقليدية المـارة في صـباحي كل يومٍ.. ولكن الجـديـد اليوم نظرة "توكل" المُسـلطة على بـاب منزلي، ولكن لمَ يجلس هنـا؟! ليس مكانـه وليست عادته ولمَ تلك النظرة؟! لم اشعر بـنفسي. سوى ورجلاي تتـوقفان على عُتبة منزلي الخارجية لأبادل نظراته الجامدة بـنظرات مُتعجبة، قد يظنني البعض مجنونا لاستفساري عن سبب جلوسه هـكذا أو ما الذي سأستفيده من استفساري عن تلك النظرات؟! شبع فضولي.. إعجابي به.. نظراته الغامضة.. أم كل هذا؟!

تحركتُ مقتربًا مِنه وكل خطوة تُرسـخ كلمات نجيب محفوظ حينما قال شـارحًا الجنون في جملته " إن الجنون وحده هو الذي يتسـع للإيمان والكفر، للـمجد والخزي، للـحب والخداع، للـصدق

والكذب، أما العقل فكيف يحتمل هذه الحياة الغريبة؟ كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه في الوحل؟"

وقفتُ أمامه كلانا مُسـلط أنظاره في بؤبؤ عين الآخر، لم أفهم أبدًا " توكل" وعلى ما أظن أنني لن أفَهمه ما حُييت، ولعل وعسى- هذا سرّ انجذابي له، لعله الاختلاف.

نظراتـه ثـاقبـه رغم غرابـة الموقف وبلاهـة مقلتيـه، ولكن لا بـأس بـبعض الجنون لـصباح هذا اليوم الروتيني، لم أصمت أكثر حيث هاتفت بتلقائية غريبة على عهدي:

_صباح الخير توكل، أليس هذا الصباح مُشرقا؟!

جلستُ بـجواره غير عابئ بالمكان أو الهيئة المزرية التي كان عليها " توكل "، ولكني نظرتُ لـلأمام -بالضبط - على نافذتي التي كنت أطل منها منذ وقتٍ والتي كان " توكل " ينظر لها كذلك، وكأنه أجاب على سؤالي وألقيتُ السؤال التالي ولم أوجه نظراتي له:

_لمَ أنت هنا؟!

لم يَجب، ولم أتوقع أجابه كـذلك، فـ " توكل " يذهب أينما يريد ويغادر مثلما يريد، ويظهر من حيث لا نـتوقع! تركتُ لسـان حالي يُعبر بـانطلاقة وشرودي يأتي سريعًا مُحتفظ بـذكريات عديدة، وكلماتي غير مفهومه - على ما أظن - بالنسبة له:

_ أتعرف يا توكل إني أحسِـدك؟ نَعمْ أحسـد تفكيرك وعقلك هذا، أحسد عدم اهتمامك بـالحياة وما حولها وما تتضَمنه، أحسدك على

تفكيرك الفارغ ونظراتك البلهاء، أحسدك كل على ما أعتقد ولا أحسد شيئا معينا بالتحديد.

سكتُ للحظة وتابعتُ بانتشاء قائلًا:
_ كثيرًا تمنيتُ الجنون ولو للحظه فقط، تمنيتُ التميز بالغرابة، رأيتُ كل أفعالك رمزًا للغرابة والتميز أقرب للجنون، فأيقنتُ بأنك سلكتَ الطريق الذي تمنيته طويلً ...
لا أعلم لمَ صمتُ! ولمَ تحدثتُ من الأساس! كل ما أيقنته وقتذاك هو وقوفي الغير مُبرر بالمرة، واستعدادي التام للمغادرة وإيقاف قنبلة الجنان التي سيطرت عليَّ _ وهذا ما يُميز العاقل بالتحديد _، نظرات " توكل " لي الجامدة ولم ينحَ ببصره سوى عندما نظر للسماء بجمود وهدوء، بنظراته يُتابع سير السحاب الهادئ كذلك وجدته يتحدث بكلمات غير مفهومه قائلًا:
_ السماء.. الظلام الآخذ.. الليل..

عرفتُ بأنني لن أخذ منه أي شيء فاستعدتُ للمغادرة وتركه وراء ظهري، ولكن كلماته التي أصبحت واضحة أوقفتني عن التقدم، ألتفتُ له بعينين غائرتين والتشوش كان صاحبي، والعرق بدأ بالتجمع على جبيني العريض، وحروفه جعلت خيالي يعمل مُكونًا صورة واضحة لمعاني كلماته الصادرة من شفاهه المُتشققة:

_" السماء صافيه.. والليل ظالم بشده.. القمر مُكتمل كقرص ساطع مُستدير.. والرياح هادئة، الظلامُ يقترب أكثر فأكثر ومعالمه بدأت بالوضوح والتكون، أشجار كثيفه تعمل كستارٍ مخفي، الظلام هناك لم يهدئ حتى اقترب من تلك النافذة الموارية في تلك الساعة

من كل ليله _ كـــتلك _ ظل واقفًا أمامه مؤهلًا لـــفعل ما يحلو له، وقت بســـيط أعلن الظلام انتصـــاره، وهذا الذي خسرـــ وقع على كرسيه مُستسلم للقاتل أمامه، وفاز هذا ومات ذاك"

سلط أنظاره عليَّ في آخر كلماته، وتابع بـــجمود ولكن انتصار أحرفه خلقت حبلًا سميكا لفّ حول عنقي:

_وانت ما زلت هنا وهو سكُنَ في التراب!

جُحظت عيناي ولكن لمَ؟!

لمَ! بعد كل هذا ولمَ! من هو المُختل؟! من هو المجنون هنا؟

نظرتُ له بـــثبات لا أعلم من أين! وحروفي تابعت جلوسي في نفس المكان بـــجوار " توكل " الذي ظل يتابعني بـــنظراته تلك، همستُ بهدوء:

_ ماذا تقصد بهذا الكلام يا توكل؟!

وكـــــأن الجنون تركه وأصـبح كل العقل في هذا الشـخص الجالس بـجانبي، أردّف بـنفس النبرة ولولا إني أعرفه لـقولت أن نبرته تحمل الكثير والكثير من المكر:

_ الكلام ليس كلامي، ولكن كلام الليل!

فقدتُ صوابي عندما خرجت حروفه تلك مع تكون صورة لـــكوب القهوة مَغموس بـــأقراص عديدة من " الفياجرا " المُميتة، والنهاية معروفه.

وقفتُ بصدمه، ونظرتُ له بقليل من الخوف، ولكن الثبات النفسي عاد بعد فتره من الصمت، وقفتُ أمامه مُشرفًا عليه من علوي هذا، وسؤالي أتى من عمق أنفاسي:

_ ماذا تريد؟!

والإجابة جاءت أبسط مما يكون:
_ العدل!
وكأن الكلمة بسيطة لكي تتحقق، ولكن ابتسامتي جاءت مُنتصرة وأنا على يقين بـما أقوله، وكـأنها الحقيقة الوحيدة هنا، فـهمستُ مُردفًا بتشفي:
_ ومن سيصدق مجنون؟!!
تمت بحمد الله